

# مقابلة أربس مع :

سيغريد هونك  
بقلم فاروق بيضون

نص الحديث الخاص مع المستشارة الألمانية الدكتورة  
سيغريد هونك ، صاحبته سب ( شمس العرب تنشق  
على الغرب ) .

- « لقد آن الاوان حقا ان يجلى كل غموض عن حقيقة هامة في  
تاريخ الحضارة الانسانية ، حقيقة ضاعت في ظلمات القرون السالفة  
وحجب عنها النور بشى الوسائل والطرق متعا من ان تظهر امام عين  
الناس وتدخل عقولهم .

انها بالفعل قضية عدالة . وقد أصبح من الضرورة بمكان كبير ،  
وبعد هذا الانتظار الطويل الذي دام فرونا عديدة ، ان تأخذ العدالة  
مجراها .. والا ما جدوى وجودنا في قرن عشريني فاق كل القرون  
الآخري بتقدمه وبعلميته ؟

وهذا التقدم وتلك العلمية بالذات تفرضان حتما الكشف عن  
الحقائق الضائعة تحت اربال من التعصب الاعمى او اللامعلمية او قصر  
النظر او ضيق الاق ، او كلها مجنمة ، ومهما اعترضتنا من صعوبات .  
وتوقفت محدثي لحظة عن الكلام لتقدم لي سيجارة تناولتها  
شاكراً صامتا ونايمت حديثها :

- « لقد قلت انها قضية عدالة . وانا اعني حرفيا ما اقول .  
والعدالة تقضي بارجاع الحقوق الى اصحابها ، مهما كان موقفنا منهم ،  
وباعطاء الله ما لله والقيصر ما لقيصر ..

فالعدالة تقضي اذا وقبل كل شيء التجرد العلمي حبا في الحقيقة  
واظهارها . واذا نحن تجردنا عن كل عاطفة او تعصب ، نجد ان الجهود  
العربية التي بذلت في بناء صرح الحضارة الانسانية ، قد وجدت كل  
شيء الا التقدير الحق : لقد عرفت التشويه بشتى الاساليب ، وهون  
من امرها واستصغر من شأنها .. بل ماذا اقول ؟ لقد ضرب حولها  
حصار خانق منع عنها ، ولقرون عديدة ، النور والهواء ..  
وهكذا سلب من العرب حق تاريخي ، حق الاقرار بالدور الحضاري  
العظيم الذي لعبوه في تاريخ الحضارة الانسانية ..

ومن قام بعملية السلب ؟ اولئك الذين يدينون اكثر من غيرهم ،  
ارادوا او لم يريدوا ، بفضل العرب على حضارتهم وثقافتهم .. واعني  
بهم الأوروبيين والأوروبيين بالذات ... »

كنت انصت الى محدثي ، الباحثة الألمانية المستشارة القديرة  
الدكتورة سيغريد هونك ، وقد ارهفت سمعي واصبحت اذنا صاغية  
تلقط كل حرف بقوله هذه السيدة الاجنبية عن حضارة بلادي .  
اي شعور غريب لذيذ اذ ابني ان ذلك ! واية متعة ! اية انفعالات  
شئسى .. !!

ونايمت محدثي كلامها :

- « فالحضارة الانسانية بكل صورها والوانها وحقولها ، بكل  
عظمتها وروعتها ، وبكل القدم الذي تنفياً بظلاله الفنية الان ، وبكسل  
التطور الفكري الذي نتمتع به حاليا ..

بكلمة واحدة : هذه الحضارة هي ، وبالنسبة للأوروبيين وبكسل  
بساطة ، حضارة اوروبية محضة .. ولا فضل لاي شعب غير اوروبي  
عليها . ناهيك عن العرب !!

صحيح ان هناك حضارة صينية شامخة . ولكن الصين كانت  
وما تزال بعيدة عن اوروبا وكانها في كوكب اخر غير كوكبنا هذا .  
كذلك الامر بالنسبة للهنود والفرس وغيرهم ..

وبالتالي ، اصحت تحقيقات البشر - في نظر الأوروبيين بالطبع  
وليس في نظر التاريخ - ان كانت فلسفة او علما او حضارة ..

تحقيقات اوروبية ، تحقيقات فام بها ، ولحير الانسانية ، كل من الاغريق  
والرومان والجرمان .. فقط !

واما العرب ، فليس لهم الا النقل والا البداوة والا العداوة  
والمخاصمة .. »

وشعرت بشيء كالفضب الصامت ياخذني ، وكأني اسمع هذه  
الاشياء لأول مرة ، الفضب بسبب هذا الظلم الذي احاق بنا . وشعرت  
ايضا بشيء من الارتفاع ، اجل الارتفاع ، لدى سماعي هذه الكلمات من  
فم باحثة اجنبية وكنت وافقها ضمناً على كل كلمة تقولها . وخيل الي  
انني في محكمة التاريخ الذي أخذ ينطق بلسان هذه الباحثة الجالسة  
امامي .

آه ! ما اجمل الحقيقة ، خاصة اذا ما صدرت عن قاض حيادي !  
وارهفت سمعي وقد افلعت عن الكتابة لعجزني عن تسجيل ذلك  
الدفق من الكلمات معتمدا على ذاكرتي وملحوظاتي :

- « اجل ، النقل . هذا هو الرأي الذي ساد القرون الوسطى  
والقرون التي تلتها والذي ما يزال سائدا حتى ايامنا هذه مع الاسف  
الشديد .

الباحثون ، الذين ارادوا التحرر نوعا ما من التعصب الاعمى  
ضد العرب ، قالوا ان فضل العرب يرجع الى انهم « نقلوا » فقط .  
نقلوا عن الاغريق الفلسفة والطب والرياضيات وبقية العلوم وقدموها  
بواسطة اليهود الى اوروبا ..

وحتى هذا النقل لم يجد كثيرا . ذلك ان الأوروبيين قد رجعوا  
في عهد نهضتهم الى الاصول الاغريقية مباشرة ، فخطوا حسب زعمهم  
الترجمات العربية .

وهكذا « غمز » ايضا من هذا « الدور الوحيد » الذي اقر به  
للرب بعض الباحثين في محاولة اخيرة لطمس كل فضل عربي على  
الحضارة الاوروبية خاصة .

واما العامة من الناس فان كلمة « عرب » كانت وما تزال توحى  
لهم بالبداوة والعداء وبالانحلال الخلقي فقط .

واما تحقيقات العرب في ميادين الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ  
هذه التحقيقات التي لم تكن بحفظ التراث الاغريقي فحسب بل  
زادته وطورته فنتجت عنه فلسفة عربية محضة قائمة بذاتها ..

فلسفة حمل لواءها في عصور الظلام الحالك في اوروبا ، فلاسفة  
عظام من امثال ابن سينا وابن باجه وابن رشد وابن طفيل وكان لهم  
اكبر الاثر والفضل على الفكر الاوروبي بنفس المقدار الذي كان لآثر  
الاغريق على العرب .. مع فرق بسيط وهو اعتراف العرب بعظمة  
الفكر الاغريقي واحترامهم له وعلميتهم في حفظه ونقله ونشره .. من  
جهة ، ومن جهة اخرى تجاهل الأوروبيين فضل المفكرين العرب عليهم ،  
بل ومحاولة سرقة كنوزه وتشويهها ونسبتها اليهم ..

اقول ، واما هذه التحقيقات وغيرها في ميادين الطب وعلم  
الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والحيل وغيرها ، هذه العلوم  
التي دفع بها العرب خطوات هائلة الى امام ، بل واستحدثوا بعضها  
اصلا ... الامر الذي جعل منهم وحتى اوائل القرن الثامن عشر، مرجعا  
هاما وحجة لا مناص من الرجوع اليها او الاعتماد عليها .. واما  
تحقيقات العرب في غير ذلك من مظاهر الحضارة الحديثة وتطويرها بشكل  
جعل منهم قادة في هذا المضمار ايضا ..

كل هذا قد ضرب حوله الأوروبيون حصارا خانقا . وتجاهلوه

ناسين الى انفسهم كل فضل في محاولة يانسة لطمس الحقيقة وحجبها عن الاعين .. »

وتوقفت محدثتي عن الكلام ، لتصب لي من ابريق نحاسي شرقي جميل شيئا من القهوة المقلية في فناجين « الموكا » - كما يسمونها هنا في ألمانيا . - وقربت الفناجان من فمي ، فتفنت رائحة البن اللذيذة الى خياشيمي واخذت ارتشف منه ببطء متممدا لزيادة متفتني واطالتها .. فمتى كانت القهوة العربية الاصلية تقدم في قلب اوروبه ؟ انه على اية حال امر لا يحصل كل يوم هنا ..

وكنها رأيت كيف كنت اظيل النظر الى ابريق النحاسي والفناجين السمئة الملتفة حوله فوق طائفة نحاسية مدفوقة ، فقالت لي :

« كل هذا الذي تراه امامك : ابريق والفناجين والطنافس الجلدية والبساط وغير ذلك ، قد اشترينته من المغرب وهو بحق ثروتي الغالية التي تثر في نفسي اجمل الذكريات ؟

وفي هذا الوقت دخل قاعة الاستقبال حيث كنا ، شاب ممشوق القامة اشقر الشعر ، وفوجيء بوجودي ، فاراد الاعتذار والرجوع ، ولكن نادته الدكتوراة قائلة لي :

« اريد ان اعرفك على ابني الكبير . لقد ولد في مراكش حيث عشت هناك انا وزوجي مدة سنتين .

وضحك الشاب وقال معلقا :

« اجل في طنجة وانا اعتبر نفسي عربيا من المغرب ! »

فقلت :

« ولكنك اشقر الشعر وانت اشبه بسكان الشمال الفياكنغ من العرب المغاربة ! »

فاجاب :

« الظواهر غير مهمة ، وانما المهم هو القلب » . و اشار الى موضع قلبه .. وضحكنا ثلاثتنا . ثم استاذنا مني وخرج مع والدته من القاعة ، واصبحت وحيدا وسط قاعة شرقية عربية في قلب بيت اوروبي فسي بون : وسط تذكارات عربية من مختلف الاقطار العربية ومن الصحراء وسط كتب ومجلدات صفت في كل النواحي وقرات اسماء « المعلقات » و « ديوان المتنبي » و « الشعر الاندلسي » و « تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان » و « الديوان الشرقي العربي لغوته » و « الثورة العربية » و ... و ...

وعدت الى مقعدي الوثير ، الى فهوتي العربية . ونسيت تعبتي ومشاق الرحلة التي قطعتها من برلين الى بون وهي مسافة تبلغ ستمائة كيلومتر ، وذلك لمقابلة مؤلفة كتاب « شمس العرب تشرق على الغرب » ولاجراء هذا الحديث معها ..

فكناها هذا كتاب غير عادي حقا . انه وثيقة تاريخية خطيرة كشفت النقاب عن تراث الغرب العربي بموضوعية وتجرد وشمولية وجرأة تستحق كل ثناء وتقدير .

ورجعت الى ذاكرتي تعليقات العلفين من ثناء او نقد ، من تحييد او هجوم ، تعليقات تقر جميعها بخطورة الكتاب واهميته ، الامر الذي جعل من صدوره حدثا هاما في الاوساط الفكرية ، ليس في المانيا فحسب بل في اوروبه كلها .

ثم ما لبثت ان عادت الدكتوراة هونكه معتذرة عن تقييها للحظات وعادت الى جلستها امامي . وقالت :

« سيدتي ، اني لن اطلب منك ان تذكر لي بشيء من التفصيل اثر العرب على الحضارة الغربية . ذلك ان هذا يشكل موضوع كتابك الذي وفي هذا الموضوع حقه فعلا واطهر للجميع ولنا ايضا نحن العرب ، ما غمض على الاعين وما حسبناه غريبا عنا ..

ولكني احب ان اعلم شيئا عن الافكار الرائدة التي دفعناك اليه لخوض في مثل هذا الموضوع الشائك .. واطنك توافقيني على كلمة « الشائك » كما ذكرت ؟ »

واجابت الدكتوراة هونكه :

« حقا ، الكلمة في مكانها ، وهذا ما برهنته الايام بعد صدور الكتاب . ولكن دعنا من هذا .

الافكار التي دفعنتني الى الكتابة عن هذا الموضوع هي عديدة ومختلفة ، ولعل بامكاني تلخيصها بالشكل التالي :

اولا - اثناء دراستي الجامعية وخلال تحضير لي لاطروحتي ، تسبعت عن كتب تاريخ الشعر العربي القديم وتأثيراته القوية على الشعر في اوروبه عامة والشعر الفئاني Minnesang او Chansons de Troubadour

فيها ، هذه التأثيرات التي انعكست في انتاج شعراء القرون الوسطى بل وفي شعر غوته ايضا وفي ديوانه « الشرقي الغربي » . ولعل ابن حزم وابن زيدون من الذين اثروا اكثر من غيرهما على شعرنا الفئاني والغزلي .. ومثلا فان ديوان « طوق الحمامة » قد نقل الى عدة لغات اوروبية وحظي وما زال يحظى بكل تقدير واعجاب .

ثانيا - انطلاقا من دراستي لشعر الغزل لدى العرب وخاصة الاندلسيين منهم ، وفقت وقفة طويلة على العلاقة القائمة بين الرجل والمرأة في عصور النهضة بالطبع . فوجدت فرقا شاسعا بين مكانة المرأة العربية في مجتمعها وبين مكانة اختها الغربية في مجتمعها انذاك .

ففي الوقت الذي كانت فيه المرأة العربية تتمتع باحترام الرجل لها وتعبد لها واقراءه بحقوقها ، كانت المرأة في الغرب عنوانا للخبيثة ، كما بشرت بذلك الكنيسة الكاثوليكية ، وبالتالي كان عليها ان تعيش في ارباب دائم من الرجل ، واصبحت في نظرهما ، جسدا يفوي لا غير ..

وهذه الناحية بالذات كانت موضوع كتابي السابق « الرجل والمرأة » متطرة فيه الى الدور الذي حققه الاسلام في هذا المضمار ..

ثالثا - كل هذه الامور جعلتني اركز اهتمامي على الثقافة العربية والادب العربي وكل مظاهر حضارتكم .. وعبنا بحثت عن كتاب جامع شامل يوضح هذه الاشياء ويرز تلك الحقائق التاريخية التي لمستها اثناء دراستي فلم اجد وانما لمست التعمد في اخفاؤها وطمسها عبر القرون من قبل الكنيسة الكاثوليكية وغيرها من الجهات الغربية التي كانت تعمل بوحى من تعصبها الاعمى ..

اقول كل هذه الامور واقامتني في المغرب مع زوجي وزيارتي المتعددة للاقطار العربية بقية الدراسة والاستطلاع .. دفعنتني الى وضع كتابي الاخير عن هذا الموضوع بالذات واملي ان اكون قد الممت الاما كافيا به . وقلت لها :

« حقا . حقا . سيدتي ، لقد فلت ن الاوروبيين يتجاهلون الجهد العربي في بناء صرح الحضارة الانسانية كما ذكرت سابقا . لماذا؟ وما هي الاسباب حسب رأيك ؟ »

واجابت الدكتوراة هونكه بنفس الشجاعة التي ردت فيها على الناقد وب بنفس الجرأة التي كتبت بها كتابها :

« اجل ، ولعل في هذا التجاهل احد الاسباب التي دفعنتني الى وضع كتابي هذا . واما الجواب فهو يحتاج الى شيء من التفصيل . واريده ان اذكر لك هنا حقيقة ربما تكون تجهلها :

ان اطلعت يوما ما على كتب التاريخ التي يتداولها تلامذة المدارس في اوروبه لوجدت ان ذكر العرب ، كشمع وحضارة وثقافة ، يرد باختصار في مرات ثلاث معدودات ، تحصر العلاقة بين اوروبه والعرب بالشكل التالي :

اولا - الخطر الذي كان يشكله العرب في اسبانية على اوروبه ووصول الجحافل العربية الى قلب فرنسا وموقعة « بواتيه » بقيادة شارل مارتل الذي اصبح قديسا او كالقديس « لانقاذ اوروبه من خطر البربر ! » .

ثانيا - الحروب الصليبية التي كانت تهدف الى احتلال البلاد العربية وليس الى حماية الارض المقدسة . ومقاومة العرب لهم وقذفهم لفلول الصليبيين في اخر الامر ، الى البحر .

ثالثا - خطر العثمانيين الذين وصلوا الى ابواب فينا ، عاصمة اوروبه انذاك . والاوروبيون لا يفرقون - عمدا - بين المغرب

# ليديلاو

الى الصديق : سعيد الجداوي

\*\*\*

بأرض الشارع المهجور ما زالت بقايا مخلب الصمت  
تحفره ، فتندفق الوجوه وتوحش الأحياء  
وحط الليل يرتفع القرى المخنوقة الصوت  
ويطرح صدره العريان يحضن طيرها وثمارها الخضراء  
فأحلم انني بمدينة عذراء  
يطير الصيف فوق سمائها شعرا وموسيقى  
وينفض ذيله فيساقط الاثمار والاقمار والافياء  
وأحلم انني ابحرت عبر مدائن الموت  
وعدت بقبضة من طمبها المحرور بالنبت  
اراقص كل ظل عابر ، واهز كل يد ، واهتف :  
آ .. مساء الخير .  
وكان الشارع المهجور يزفر في ضباب الليل رؤياه  
وبعض حصاده اليومي من ضحك ومن أعياء  
وعبر الصمت ، من بوابة الأشجار ،  
تغمغم ، تشرئب عرائس الحنطة  
تغنى شعرها المسحور بنت الماء  
وترقص ، يشرئب الشارع المهجور  
يرضع صوتها الفوار  
وأحلم انها جاءت بكل رفاقنا الارض ،  
أهتف : آ .. مساء الخير  
سأخلع معطف الاحزان في الساحة  
وأبدأ رقصتي الاولى ..

محمد عفيفي مطر

القاهرة

والعثمانيين .. فكلاهما شكل خطرا على اوروبا وهذا يكفي ..  
اذا علاقة العرب باوروبا كما تصورها كتب التاريخ هنا التسي  
يتداولها تلامذة المدارس هي علاقة عداة وحروب فقط ، وبالتالي فإن  
العرب اعداء لاوروبا ليس الا ..

اضف الى ذلك موقف الكنيسة الكاثوليكية امام الفلاسفة المسلمين  
ومحاولتها في انقضاء على نفوذهم وتأثيرهم في اوروبا ، وما تبع ذلك  
من حملات تعصبيه عمياء ..

اضف الى ذلك الترسبات المتراكمة في عقول الاوروبيين ، والناجئة  
عن صراع قديم وعن خرافات خرقاء لا اساس لها من الصحة ..  
اضف الى ذلك اثر الدعاية السيئة ضد العرب ، واثر التصورات  
المغربية عن الشرق العربي بلياليه وحريمه واساطيره .. والجهل لدى  
الاوروبيين ..

اضف كل هذا تجد الجواب على سؤالك .

- « لقد اهتمت من البعض بالتحيز للعرب . فماذا تقولين ؟ »

- « هذا غير صحيح ! اني لم اتحيز للعرب ولم اتعيز ضد احد ..  
وانا لا انكر حبي وتقديري للعرب ولحضارتهم .. ولكن اسأل من يكتب  
عن اليونانية اليس هو ايضا متحمسا لها ؟ وهذا امر طبيعي جدا ..  
وما ضرره طالما اني حافظت على الموضوعية كل المحافظة ؟ »

- « ووصفت بالشجاعة ، فما هو تعليقك ؟ »

وابتسمت الدكتور هونكه ولم ترد بشيء .

وهنا رجوتها ان تحدثنا قليلا عن الكتاب ، وعن عملية وضعها له ،  
فقلت وكأنها تسترجع ذكريات عزيزة على قلبها :

- « لقد استغرق وضع الكتاب مدة اربع سنوات من العمل  
المتواصل . وقبل ان اعمد الى الكتابة عمدت الى القيام بعمل تحضيرى  
ودراسة مسبقة في كل فروع العلم التي تناولتها في كتابي .. فذهبت  
الى الجامعات وحضرت شتى المحاضرات في مختلف الكليات لكي اكتسب  
تجربة بالعلم ذاته وبمعاييره الفنية وباهم وسائله .. ثم عمدت الى  
البحث عن الاصول العربية المنتشرة في مكتبات اوروبا .. وكان زوجي ،  
وهو يجيد العربية وقد تعلمها في الصحراء الاردنية حيث بقي فيها  
مدة اربع سنوات من ١٩٦٦ - ١٩٣٠ ، يساعدني في الترجمة من العربية  
الى الالمانية ..

ولقد اعترضتني صعوبات جمة لدى بحثي عن الاصول لمقارنتها  
بالتجمات اللاتينية واضطرت بعض الاحيان الى ذكر بعض مقاطع من  
الشعر العربي دون تمكيني من معرفة صاحبه . فمعدرة من القراء  
العرب . ولكني ، وبعد النجاح الذي لاقاه الكتاب الامر الذي دفع  
بالناشر الى اعادة طبعه مرة ثانية في خلال عام واحد ، فاني لا اكاد اذكر  
ذاك العذاب المصني والعمل المتواصل ..  
ثم توقفت لحظة لتقول :

- « اني سعيدة جدا وفخورة لقيامي بهتل هذا الواجب تجاه  
التاريخ وتجاه شعبكم العظيم الذي عاد الى صعود السلم من جديد .. »  
وسألته عن مشاركتها في المستقبل ، فاخبرتني بانها كلفت مسن  
قبل الهيئة المشرفة على اصدار الموسوعة العلمية A-Z لدى احدى دور  
النشر الكبرى في ألمانيا ، بوضع بحث شامل عن تاريخ الادب العربي  
وتأثيره على الادب الغربي ..

ثم تحدثنا معا عن رحلاتها الى الاقطار العربية ووصفت لي بكثير  
من الامتنان واود الحفاوة التي لقيتها في الوطن العربي .. وحدتني  
عن زوجها واولادها وحياتها الخاصة وذكراياتها في مراتس ..

وكان حديثها هذا ينبض بالود الكبير وبالحب العظيم وبالتقدير  
البالغ للشعب العربي ، لادبه ، لحضارته ، لبلاده الكريمة المطاءة ،  
لاخلاقه ولكفاحه القديم الجديد من اجل الحصول على مكان خليق به  
تحت الشمس !

فاروق بيمسون

برلين